المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

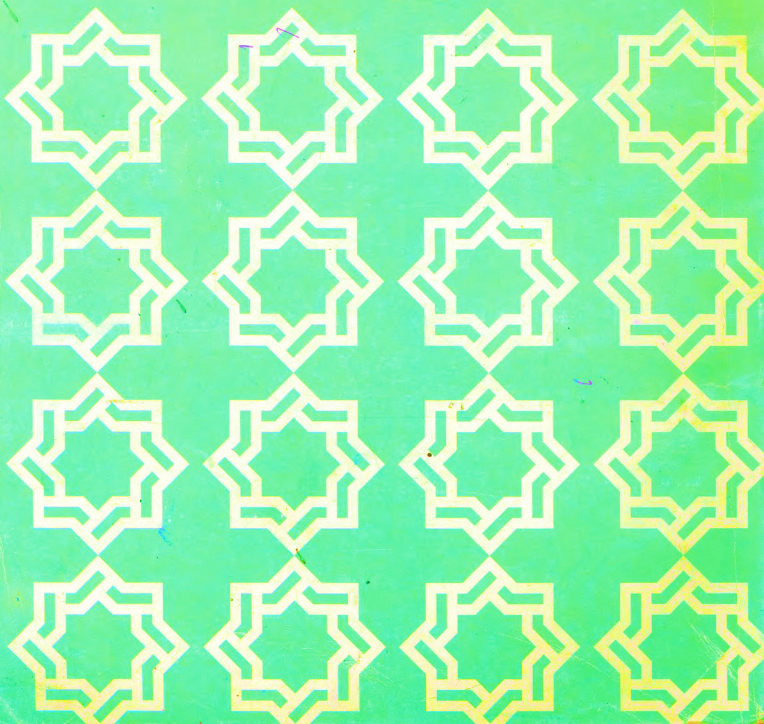

مناظرة الخوارزمي والهمـذاني

بقـلم

منذر الجبوري

سكرتير تحرير مجلة الاقلام
ـ وزارة الاعلام ـ بغداد

توطئة :

يعتبر القرن الرابع الهجري فترة ازدهار للحركة الادبيـة حيث نبغ فيه الكثيرون من ادباء العربية سواء أكانوا شعراء او كتابا او متخصصين بفنون من القول اخرى ، اذ لا زلنا نستذكر باعتداد كبير المتنبي وابا فراس وابن عباد وسواهم من الذين ارسوا دعائم النهضة الادبية آنذاك ، ومن اعلام تلك الفتـرة ابو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني اللذان عرفا بفـن المقامة (١) ، والرجلان الى جانب اشتهارهما بهذا الفن فانهما عرفا شاعرين وناثرين ايضا فلكليهما ديوان للرسـائل النثريـة ومجموعة من الاشعار تنسجم واغراض عصرهما ، واذا كـان موضوعنا الاخص هو المناظرة التي اشتجرت (٢) بينهما فلا باس من التعريج ولو بصورة عامة على الفنون التي عرفا بها وخاصة المناظرة والمقامة مع ايماءة مقتضبة لحيـاة الرجلين بسـبيل استقصاء المؤثرات البيئية التي طبعت اتجاههما الادبي .

المناظرة :

المناظرة فن عرفه العرب منذ جاهليتهم ولا ادل على ذلك من مناظرة النعمان لكسرى ومفاخرته له في حوار طريف جـرى بينهما ، ثم ان وفود العرب كانت ترد على كسرى بين الفينـة والاخرى لعقد المناظرات معه واطراء مفاخر العرب وايامهم ، ثم امتد ذلك الى الاعصر التي تلت عصر الرسالة ، وكنموذج للمناظرة الاسلامية ، تلك المناظرة التي جرت في سـقيفة بني ساعدة اثر وفاة الرسول (ص) بين المهاجرين والانصار حيث حشد كل من الفريقين حججه وادلته ليدحض حجج وادلـة خصومه ، ومن المناظرات المشهورة في عهد الخلفاء الراشدين تلك المناظرة التي جرت بين الامام علي والخوارج وقبلها بينه وبين معاوية عندما ارسل الامام علي جريرا لياخذ البيعـة من معاوية .

وفي القرآن الكريم نماذج للمنـاظرة نجدهـا مبثوثة في بعض السور وخاصة في سـورة المجادلة ، وهكذا اخذ فـن المناظـرة ينمـو يومـا بعـد يـوم وعصـرا بعد عصـر وهو في كل مرحلة يشذب ويزدهر ، اذ تزود مقتحمو هذا الميدان بالادلة والبراهين التي تخص المواضيع التي يتناظرون فيها ، سواء كانت في النحو او اللغـة او الادب ، وفي مجالس ثعلب وامالي المرتضى والمصادر المشابهة صور غنية للمناظرة ، ففاية المناظرة اذن اظهار وجه الحقيقة عن طريق بسط الادلة ومناقشتها ضمن الموضوع الذي تثار المناظرة لاجله ، وقد عرفت المعاجـم اللغوية المناظرة بهذا المعنى (٣) ، بيد ان المناظرة لا تعني الجدل المقصود بذاته الذي ينتج التجريح والتشهير كما سنلحظ ذلك في مناظرة الخوارزمي الهمذاني وكما نعـلم عن نقائض جريـر والفرزدق التي ابتعدت في اكثرها عن الذوق بالرغم من اغنائها الادب العربي برافد شعري غزير .

المقامة :

المقامة ـ لغظا ـ معروفة منذ العصر الجاهلي ، فقـد ورد في شعر زهير بن ابي سلمى قوله :

ومقامة غلب الرقاب كانهم جن لدى باب الحصير قيام

ثم طورت اللفظة الى ان اصبح معناها عند الخوارزمي والبديع وسواهما من المهتمين بهذا الضرب من الفن بمعنى الحديث مهما كان نوعه « وعظا ، خطبة ، حكاية ... الخ » ومن المفيد ان نذكر هنا ان كثيرا من رواد الادب قد اعتبر المقامة فنـا قصصيا ، او انها البذرة الاولى للقصة العربية ، باعتبارهـا تمتلك مقومات القصة القصيرة بما تمتلكه من موقف انساني مضغوط يصب في اوجز لفظ متخير ويصور غربة العبقري في مجتمعه ، وذلك مايبدو عند الهمذاني وبطل مقاماتـه « عيسى ابن هشام » الاديب الذي يعيش الفقر في دنيا يسودها الجهل ،

---

(١) من المفيد ان نشير هنا الى ان ابا بكر الخوارزمي يعتبر واضع فن المقامة كما يقول بذلك كثير من المؤرخين ، او انه بطل هذا الفن من القول على اقل تقدير .

(٢) تعمدت ايراد هذا المعنى « الاشتجار » نظرا لتبدل المتناظرين وابتعادهما عن جو التناظر الذي يجب ان يسود اية محاججة ادبية ، وسنشهد ذلك في المتقدم من الكلام .

(٣) ينظر باب المناظرة في لسان العرب وتاج العروس والمعاجم العربية الاخرى .

ومثل هذا نجده في مقامات الحريري التي نجد فيها نقدات لاذعة للمجتمع ، بحيث ان بعض الدارسين (٤) قد عقد علاقة مشابهة بين هذه المقامات وشخصياتها وبين رواية سرفانتس « دون كيشوت » (٥) ومنهم من غالى مدعيا بأن سرفانتس وسواه ممن خاضوا هذا المجال من الفن الادبي قد تأثروا بالبديع والحريري والهمذاني وسواهم بل ان الكثيرين قد ذهبوا الى أبعد من ذلك عندما ادعوا بأن قصصيين عالميين قد اقتبسوا أفكارهم من كتاب المقامات ، بيد ان المتخصصين من الادباء العرب قد رفضوا هذا الادعاء واكدوا على ان المقامةبعيدة كل البعد عن القصة .. وفي هذا المجال يقول الدكتور شوقي ضيف (٦) .. « ليست المقامة قصة وانما هي حدث ادبي بليغ وهي ادنى منها الى الحيلة منها الى القصة » وهذا الرأي يستحق التأمل لان القصة لها مقومات فنية ان هي افتقدتها خرجت عن كونها قصة ، منها الحبكة الفنية والعقدة التي تشد القارىء اليها ، اضافة الى الاجواء النفسية التي يجب ان تتمازج لتعطي اشخاص القصة حركة يعيشها القارىء ويتأثر بها ، والمقامة خلو من هذا كله ، ... « والحق انها ليست اكثر من حيل تفسرها حياة متكد » (٧) جوال لا هم له سوى ابتزاز الاموال باي طريق كان ، يقول الدكتور البصير مشخصا دور كتاب المقامات في شخص الهمذاني « سامح الله الهمذاني فقد اساء الى الادب بمقاماته اكثر مما احسن بشعره ورسائله » (٨) .

ويقول ايضا .. « اما مقامات الهمذاني فهي جنايةلاتغتفر على الادب العربي ذلك انه خلق فيها ادب الشحاذة خلقا وانشاه انشاء » (٩) .. فالمقامة اضافة الى انها بدعة في الادب العربي فنحن « لا نجد فيها طرافة القصص ولا طرافة الحوار التمثيلي » (١٠) وهذا شيء طبيعي بالنسبة للمقامة لان الاصل فيها التعليم لا الفن ، فمنذ ان ابتكرها البديع كما يدعي البعض اخذت ترخم بفيض الالفاظ الغريبة وحزم السجعات المتكلفة ، غايتها الاساسية ملء الاسماع واشباعها بالغريب الذي اخذ يحل عند الكثيرين ، فالذي يريد ان يزيد ثروته اللغوية فعليه بحفظ المقامات ، ومن هنا كان المعنى فيها غير ذي بال ، فاللفظ هو الغالب ابدا والمعنى تابع له ، ولمارون عبود رأي لا اراه مستندا الى الحقيقة ، فهو يرى ان المقامة قصة في حين انه لا يقدم أي دليل على مايدعيه فهو يقول بالنص عندما يجيب على سؤال فحواه هل المقامة قصة ؟ .. « نعم ياسيدي انها قصة والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك انت وهندام جدك رحمه الله » (١١) وحسبما يبدو فان هذا الرأي لا يمتلك من الحجة المنطقية جانبا ، وقد سقته استكمالا للبحث ودحضا لادعاءات غير خاضعة للدليل الحاسم .

وعلى اية حال فان الخوض بموضوع المقامة من حيث أصلها ومنشؤها وتطورها والغاية من ابتداعها وهل ان البديع ام ابن دريد قد ابتدعها واخيرا هل هي قصة ام لا قد يجرنا الى نقاش طويل لا ارى مناسبة لاستمراره ، وحسبنا فكرة تقدمت عن هذا الفن ، كان الخوارزمي والهمذاني من روادها .

ترجمة الرجلين :

أ ـ الخوارزمي :

اسمه محمد بن عباس الخوارزمي ويلقب ايضا بالطبري، والنسبة الاولى هي التي تلحق اسمه في معظم التراجم ، يقول الدكتور محمد مهدي البصير (١٢) « نسب الرجل الى طبرستان لان اصله منها والى خوارزم لانه ولد فيها » وقد اعتمد البصير في روايته هذه على ما جاء في يتيمة الدهر للثعالبي (١٣) وهناك رأي آخر يدرجه البصير مأخوذ عن وفيات الاعيان (١٤) فحواه ان صاحبنا نسب الى طبرستان والى خوارزم وذلك لان امهمن المدينة الاولى وأباه من الثانية ، ومن خلال مراجعتي لكتاب ابن خلكان ، وجدت موءلفه يذكر ما معناه ... ان الخوارزمي هو ابن اخت جرير الطبري صاحب التاريخ المشهور وخلاصة القول انه نسب الى طبرستان فعرف بالطبري والى خوارزم فعرف بالخوارزمي .

ولد الخوارزمي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة للهجرة ونشا محبا للعلم ولوعا به ، واهل ذلك لم يك بالأمر الغريب بالنسبة للرجل اذا ما تتبعنا سيرته ، فقد ورد منابع العلم منذ نعومة اظفاره وتقصى رجاله في شتى الامصار ، فقد غادر خوارزم واتصل بعلماء العراق والشام وفارس وتتلمذ على ايديالكثيرين منهم ثم غادر الى بخارى واتصل بالبلغمي ـ وقد ساءت علاقته معه فيما بعد ـ ويجدر بنا ان نذكر في هذا المجال ان ابا بكر قد اتصل بعاصمة الادب انذاك وهي حلب حيث اميرها سيف الدولة الحمداني الذي كان يتوافد عليه اللغويون والادباءومنهم المتنبي وابو فراس وابن خالويه والفارابي ، حتى ان صاحب اليتيمة عندما يحدثنا عن شعراء حلب الذين كانوا يتقاطرون على حاضرة الحمداني نراه يسهب في ذكرهم ويعطينا عددا كبيرا منهم بعد بالمئات ، وقد اجزل سيف الدولة العطاء للخوارزمي بعد ان مدحه بيد انه لم يطل المكث في بلاط الحمدانيين اذ سرعان ما غادره الى بخارى ومن بخارى سافر الى نيسابور ، وهي انذاك عاصمة مرموقة من عواصم الادب تبارى فيها رواد الفكر ، ثم القت بالخوارزمي عصا الترحال في سجستان وهي الاخرى من مدن الادب الزاهرة ، بيد ان الحظ لم يكن

---

(٤) محاضرة ألقتها الدكتورة سمير القلماوي عام ١٩٦٦ في كلية الاداب ببغداد .

(٥) موجزها ان البطل في الرواية يخرج من ديار الفساد الى دنيا وهمية حاملا سيفا مثلوما وراكبا حصانا مهزولا ومستوحيا حبيبته الشوهاء وهو على هذه الصورة يحاول اصلاح المجتمع ، ومغزى الرواية واضح لمن يتتبعفصولها واجواءها النفسية وهو ان بطلها يرى الفساد مستشريا ويحاول الاصلاح ، ولما كان عاجزا عن هذه الغاية لذا فهو يخرج على المجتمع محتجا عليه من جانب السلب ، فانر الخيال بسكب فيه ما يجول بخاطره ويصعب تحقيقه في الواقع ضمن اسلوب تهكمي لاذع مستثيرا مشاعر الاخرين، وفي المقامة نجد ضربا من هذا الخيال الجانح المحتج على مساوىء المجتمع ضمن اسلوب النقد اللاذع المتهكم ومن هنا وجد بعض الدارسين منفذا لالتقاء فن المقامة بهذه الرواية .

(٦) المقامة ص٩ .

(٧) اهل الكدية ، ابطال المقامات في الادب العربي ، عبدالنافع طليمات ص٨ .

(٨) في الادب العباسي ص٩٩ .

(٩) المصدر السابق ص٩٨ .

(١٠) الفن ومذاهبه في الادب العربي لشوقي ضيف ص١١٨

(١١) بديع الزمان الهمذاني ص٣٧ .

(١٢) في الادب العباسي ص٦٤ .

(١٣) نفس المصدر ص٦٤ .

(١٤) نفس المصدر .

ليلاحق أبا بكر في كل رحلاته ، فبعد ان زار الصاحب بن عباد في اصبهان ، وبعد ان اكرمه الاخير اصبح ذا مال وفير حيث ابتاع عند رجوعه الى نيسابور الكثير من الضياع ، وهنا فارقه الحظ كما تقدم ، فقد نكل فيه ابو الحسن القبي احد وزراء آل بويه لموقف الخوارزمي العدائي من البويهيين ، فكان ان صودرت امواله واودع السجن ، بيد انه استطاع الهرب والالتحاق بالصاحب بن عباد ثانية حيث اكرمه الصاحب هذه المرة ايضا ، واثناء ذلك قتل وزير البويهيين « القبي » وخلفه ابو الحسن المزني الذي كان معجبا بادب ابي بكر فكتب اليه يطلب منه القدوم ، وعند عودته رد اليه ابو الحسن ضياعه المصادرة فعاد رونق الحياة اليه وعاش راضيا يتنقل بين حلبات الادب يتعلم ويعلم الى ان حدثت المناظرة مدار البحث كما سيأتي في قابل الكلام ، تلك المناظرة التي اثرت عليه سلبا كل التاثير حتى ان كثيرا من المؤرخين يعزون سبب وفاته اليها . والمتتبع لحياة الخوارزمي يجد انها تمثل سلسلة من المتناقضات التي كانت سائدة في القرن الرابع الهجري ، يضاف الى ذلك تدني نفسيته وايثاره المادة مهما تنوعت مصادرها وبخله المزري حيث يصفه الدكتور البصير بانه « بخيل الى ابعد حدود البخل » ، وهو أيضا هجاء منكر للجميل وخاصة مع الذين احسنوا اليه فقد هجا ابن عباد الذي أكرمه غير مرة ومما قاله فيه : »

لا تحمد ابن عباد وان هطلت
يداه بالجود حتى اخجل الديما
فانها خطرات من وساوسه
يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

حتى ان ابن عباد عندما سمع بوفاته قال :

اقول لركب من خراسان قافل
امات خوارزميكم ؟ قيل لي نعم
فقلت اكتبوا بالجص من فوق قبره
الا لعن الرحمن من كفر النعم

اما حياة الخوارزمي الادبية فهي متشعبة الاتجاهات ، فاضافة لاشتهاره بفن المقامة فهو معروف باسلوبه النثري البليغ ، ولديه ديوان للرسائل من اغراضه المديح والهجاء والاستعطاف ، وعن اسلوبه النثري يقول البصير « فصيح اللفظ متين السبك حافل بالزخارف البيانية كالجناس والطباق والاستعارة والتشبيه وما الى ذلك » (١٥) ويقول في مجال آخر .. « على ان لغة الرجل واسلوبه لا يخلوان من هنات وهفوات » (١٦) ... ومن اثاره الادبية الاخرى مجموعة من الاشعار لا تتعدى اغراضها اغراض رسائله وقد نثر في شعره على بعض الصور الموحية بالرغم من تقليديته ، فمن جميل قوله في الحكمة :

ولقد بلوت الاصدقاء فلم
ار فيهم اوفى من الوفر
وكذاك لم ار في العدى احدا
انكى لمن عادى من الفقر

ومن رثائه المؤثر :

وصاحب لي لو حلت رزيته
بالطير ما هتفت يوما على فنن..

عاشرته عشرة لو انها وقعت
بين الضحى والدجى سارا على سنن
حتى اذا نلت سؤلي من مواهبه
وصادني بشباك الوصل والمنن
ثكلته بعد ما سارت محاسنه
في العظم واللحم سير الماء في الغصن

بيد ان الخوارزمي يبقى ناثرا اكثر منه شاعرا بالرغم من تكسبه في المجالين .

ب ـ الهمذاني :

لقد اتى على حياة البديع وعلى التعريف باثاره الكثير من المؤرخين واصحاب التراجم الادبية امثال الحصري في زهر الاداب والثعالبي في يتيمة الدهر وصاحب معجم الادباء وعداهم اضافة الى الكتاب المعاصرين الذين اهتموا به اهتماما خاصا باعتباره من مبدعي فن المقامة وواضعي اصولها ، وعنه يقول الحصري (١٧) .. « هذا اسم وافق مسماه ولفظ طابق معناه وكلام غض المكاسر انيق الجواهر يكاد الهواء يسرقه لطفا والهوى يعشقه ظرفا » والذي يبدو من اقوال المؤرخين انه كان افضل من صاحبه ابي بكر في شتى المجالات ، فقريحته اخصب وخياله ابعد واخلاقيته اسمى « قياسا لاخلاقية ابي بكر » ومن الخصال التي تميز بها قدرته العجيبة على الحفظ لذلك لقب بالحافظ وكثيرا ماتروى عنه أخبار في هذا الشان تقترب من الخيال.. يقول الثعالبي في اليتيمة ما معناه خاصا الهمذاني ... (انه يرتجل القصيدة البليغة ويحبر الرسالة الجيدة على ريق لا يبلعه وانه يسمع القصيدة التي تتالف من خمسين بيتا مرة واحدة فيعيدها دون ان يخرم منها حرفا وينظر في الاوراق العديدة التي لم يرها قط نظرة واحدة فيهذ ماتحويه هذا ..) والهمذاني في اخلاقيته افضل من زميله ابي بكر كما تقدم فهو ممتع بكرامته مفتخر بادبه معترف بالجميل ، ومن صفاته الطموح ، فهو القائل لوالي سجستان في احدى رسائله « فما ازعجني من همذان فقر ولا جوع وعري ولا ساقني الى سجستان طمع في شبع وري وانما نحوم حول المراد ثم يستشهد بالبيت التالي :

فلو ان ما اسعى لادنى معيشة
كفاني ولم اطلب قليل من المال

ثم يستمر في رسالته .. « لا يكثر الامير علي من خلعه وصلاته فوالله لو علمت ان قصارى جهدي سجستان اليها وضياعها اقتنيتها وغلمانها اشتريتها واموالها اتسع فيها ولا مطمع في زيادة لاثرت الزهد على الطلب » وللبصير (١٨) راي في اسباب طموح الهمذاني الذي لم يقف عند حد الظفر بالمال والجاه حيث يذهب الى ان الرجل كان طامعا بالحكم غير مكتف بالخلع والعطايا ، ثم يعقد مقارنة بينه وبين المتنبي الذي طوف في ارجاء الدولة الاسلامية مادحا احيانا وغاضبا او معاتبا احيانا اخرى سعيا للظفر بمكانة سياسية مرموقة كان يعتقد بانه اهل لها ، واذا ما تجاوزنا هذا الجانب من حياة الهمذاني ابتغاء تقصي الجانب الشخصي من هذه الحياة فسيبدو لنا رجل سفر طموح لا يكاد يستقر بمكان الا ليغادر الى مكان اخر حاملا طموحه الذي لم يتحقق اقله ، كان « ابو الفضل احمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني » كما يصفه الثعالبي في يتيمة الدهر

(١٥) المصدر السابق ص٦٧ .
(١٦) المصدر السابق ص٧٠ .
(١٧) زهر الاداب ص٢٦١ .
(١٨) في الادب العباسي ص٨٠ .

... مقبول الصورة ذا روح خفيفة ولكنه مر العداوة ، حلو الصداقة .. وقد ولد الرجل في مدينة همذان احدى اقاليم بلاد فارس عام ٣٥٨ للهجرة ، بالرغم من انه عربي في الصميم حسبما تدل على ذلك رسائله ، فهو القائل في احداها « اني عبدالشيخ واسمي احمد وهمذان المولد وتغلب المورد ومضر المحتد » ، ويبدو انه قد تنبه الى اتهامه بالفارسية من قبل البعض ، فنفى ذلك غير مرة كما فعل في البيت التالي الذي تغلب عليه روح التهكم : (١٩)

لا تلمني على ركاكة عقلي
ان تيقنت انني همذاني

وله ايضا في هذا الشان :

همذان لي بلد اقول بفضله
لكنه من اقبح البلدان . .
صبيانه في القبح مثل شيوخه
وشيوخه في العقل كالصبيان

من هذا يتضح بان الهمذاني لم يكن مطمئنا لمسقط راسه، فكان ان غادرها كما سنرى بعد حين . وصاحبنا رغم بغضائه لهذه المدينة ، فقد تلقى علومه فيها وتتلمذ على ايدي اساتذتها الذين لم يحفظ التاريخ من اسمائهم الا اسمين هما احمد بن الحسين المعروف بابن فارس صاحب كتاب المجمل في اللغةوعيسى ابن هشام الاخباري الذي اجرى فيما بعد مقاماته على لسانه ، ولما تزود من همذان بنصيبه من الادب والمعرفة غادرها الى الصاحب بن عباد في الري ، وكان الصاحب انذاك وزيرا للبويهيين وهو اضافة لمكانته المرموقة هذه فقد كان اديبا ناقدا يجزل العطايا للادباء الوافدين اليه وقد مر بنا قبل حين اكرامه للخوارزمي ، ولم يكن الهمذاني باقل حظوة من صاحبه عند مثوله بين يدي الصاحب ، حيث بالغ الاخير باكرامه خصوصا بعد ان عرف موهبته الادبية الكبيرة ، لقد مدح الهمذاني ابن عباد في قصائد كثيرة تمازجت فيها الجزالة والفصاحة وترجم له شعرا فارسيا بلسان عربي ، وذلك ما زاد الصاحب اعجابا بالاديب الوافد ، وبعد ان امضى الهمذاني بعض الوقت قريبا من الصاحب ، غادره الى جرجان حيث اتصل بدعاة الاسماعيلية ولا سيما بابي سعيد محمد بن منصور ثم غادر الى نيسابور حيث ملتقى العلماء والادباء انذاك ، وفي الطريق خرجت عليه عصابة سلبته كل ما يمتلك من متاع ، فكان ان وصل الى نيسابور معدما ، وهناك راسل صاحبه الخوارزمي طلبا للمساعدة ، ولكن الخوارزمي ضن عليه بالعطاء وذلك ما اثار حفيظته وجعله يتحين الفرص به املا بالانتقام كما سياتي بعد حين عند مناظرته له . ولم يلبث الهمذاني ان غادر الىسجستان ثم الى خراسان حيث مدح الكثير من امرائها وظفر بالمال والجاه ، وهنا اقبلت عليه الدنيا كما يتضح ذلك في رسائله ، فهو يذكر في واحدة منها ان ملكا كريما قد قربه اليه واجزل له العطاء بيد انه لم يذكر اسم هذا الملك ... ثم يعود ليذكر ان ملكا قد غضب عليه وسلبه النعمة دون ان يذكر وللمرة الثانية اسم هذا الملك الغاصب ، وعلى اية حال فقد القت به عصا الترحال في « هراة » احدى مدن خراسان ، وهنا عاوده الحظ ثانية حيث عاش عيشة راضية واشترى الكثير من الضياع بيد ان الموت عاجله فتوفي في الحادي عشر من جمادي الاولى سنة ثمانوتسعين وثلثمائة للهجرة وعمره لم يتجاوز الاربعين عاما على اشهر الروايات ، ومما قيل عنه انه قد جن في اواخر ايامه ، وقيل مات مسموما ودفن وهو في حالة اغماء شديد ويقال انه قد افاق في قبره وسمع وهو يستفيث وعندما فتح قبره وجد ميتا وقد تحرك عن مكانه الاصلي بقليل ! ؟

المناظرة :

لماذا تناظر الخصمان ؟

في احدى جولات الهمذاني ، خرجت عليه عصابة من قطاع الطرق عندما كان نازحا من جرجان الى نيساابور كما تقدم من قبل ، وقد سلبته هذه العصابة كل ما يمتلكه من اموال فكان ان وصل نيساابور وهو في وضع يرثى له ، فكتب الى ابي بكر الخوارزمي رسالة مؤثرة متطلبا العون ، ومما قاله في رسالته هذه ... « انا لقرب الاستاذ اطال الله بقاءه كما طربالنشوان مالت به الخمر ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر ومن الامتزاج بولائه كما التفت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب ، فكيف نشاط الاستاذ لصديق طوى اليه ما بين العراق وخراسان بل ما بين عتبتي نيساابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف ليبردة جمال وجلدة حمال ...

رث الشمائل منهج الاثواب
بكرت عليه مغيرة الاعراب
كمهلهل وربيعة بن مكدم
وعينية بن الحارث بن شهاب

.. وهو ايده الله ولي انعامه بانفاذ غلامه الى مستقري لافضي اليه بسري ان شاء الله » .

ولكن الخوارزمي خيب ظن الهمذاني ولم يرسل اليه احدا كما كان يرجو بل انه لم يجامله حتى عندما زاره في مجلسه، فكان ان جرت مراسلات بين الاثنين اقترباقيها احياناًمنالسخف، ويبدو ان الهمذاني اراد من وراء هذه المراسلات جر الخوارزمي ـ انتقاما منه ـ لمناظرة يخرج منها منتصرا بعد ان اطمان الى ان صاحبه مبغوضا من ادباء جيله لاسباب عديدة ابرزها حسدهم لمكانته الرفيعة التي تبواها ، ثم غروره واعتداده بنفسه ، اضافة لما عرف عنه من شمائل مرذولة اتينا على بعضها فيما مر من البحث ، واخصها البخل . ويجدر القول هنا بان هذه المناظرة التي خرج منها الهمذاني رابحا ـ كما توقع ـ قد رفعت من قدره الادبي بقدر ما حطت من قدر صاحبه ، حتى ان بعض المؤرخين قد ذهب الى ان سبب موت الخوارزمي راجع لخسارته المناظرة .

في مجلس الخصام :

تقدم بان الخوارزمي كان مبغوضا من قبل معاصريهمنالادباء وقد استغل الهمذاني هذه الناحية عند خوضه المناظرة ، يقول ياقوت الحموي (٢٠) في هذا الشان « واعان البديع على الخوارزمي قوم من وجوه نيساابور كانوا مستوحشين من ابي بكر فجمع السيد نقيب السيادة بنيساابور ابو علي بينهما » . وقد ترفع الخوارزمي باديء الامر من حضور مجلس التناظر فما كان من النقيب الا ان ارسل اليه « مركوبه » على حد تعبير صاحب المعجم وهنا لم يجد بدا من التلبية ، فكان ان

(١٩) المقامة ـ شوتي ضيف ـ ص١٣ .

(٢٠) معجم الادباء ج٢ ص١٧٤ .

حضر مع مريديه وبعض تلامذته وكان الهمذاني بانتظاهره مع جمع من اصحابه ، وكان المجلس مكتظا بالحضور وعلى رأسهم النقيب ، وعند دخول الخوارزمي ابتدره الهمذاني بشيء من التهكم قائلا « انما دعوناك لتملأ المجلس فوائد وتذكر الابيات والشوارد والامثال الفرائد وتناجيك فنسعد بما عندك وتسألنا فتسر بما عندنا ونبدأ بالفن الذي ملكت زمامه وطاربه صيتك وهو الحفظ ان شئت والنظم ان اردت والنثر ان اخترت والبديهة ان نشطت فهذه دعواك التي تملأ فاك . » (٢١) .. بيد ان الخوارزمي قد اعتذر عن خوض مناظرة في الحفظ ، ويبرر صاحب المعجم احجامه عن منازلة الهمذاني بالحفظ « لكبر سنه » ، اما في مجال النثر فقد خسر الجولة امام الهمذاني وهنا اختار المباهاة فقبل الهمذاني بذلك وخاطبه قائلا « الامر لك ياأستاذ » وعندئذ قال .. اقول لك ما قال موسى للسحرة .. « قال بل القوا » فاجابه البديع :

الشعر اصعب مذهبا ومصاعدا
من ان يكون مطيعة في فكه
والنظم بحر والخواطر معبر ...
فانظر الى بحر القريض وفلكه
فمتى تراني في القريض مقصرا
عرضت اذن الامتحان لمركه

والابيات المتقدمة جزء من قصيدة مدح بها النقيب وعرض بها الخوارزمي وقد اجابه الخوارزمي بابيات من ذات الروي يقول عنها ياقوت « ما ابرزها من الظلاف » واستمرت المساجلة بين المتناظرين حيث كان الهمذاني يجانب الذوق في الكثير من ردوده . وهنا اقترح عليهما النقيب ان ينظما على منوال قصيدة المتنبي :

ارق على ارق ومثلي يارق
وجوى يزيد وعبرة تترقرق

فقال الخوارزمي معارضا قصيدة المتنبي بابيات « اقل ما يقال عنها انها لا تستحق الذكر » (٢٢) منها :

فاذا ابتدهت بديهة ياسيدي
فاراك عند بديهتي تتعلق
مالي اراك ولست مثلي في الورى
متموها بالترهات تمخرق

ثم ان الخوارزمي اعتذر بعد نظمه هذه الابيات بيد ان الهمذاني لم يرض الاعتذار بل اجابه بابيات من ذات الوزن والروي والسخف ايضا .. منها :

مهلا ابا بكر فزندك اضيق
واخرس فان اخاك حي يرزق
يا احمقا وكفاك تلك فضيحة
جربت نار معرتي هل تحرق

وهنا اعترض الخوارزمي على الهمذاني لصرفه كلمة «احمق» متناسيا انها قد وردت ضمن بيت من الشعر ، فكان ان اغتنم الهمذاني هذه الفرصة لتجريح خصمه حيث اجابه « لا نزال نصلعك حتى ينصرف وتنصرف معه » (٢٣) . ودار حوار اخر بينهما قطعه النقيب مقترحا ان يعارضا قصيدة اخرى للمتنبي مطلعها :

اهلا بدار سباك اغيدها
ابعد ما بان عنك خردها

فقال البديع :

يانعمة لا تزال تجحدها
ومنة لا تزال تنكدها

وهنا اعترض الخوارزمي ثانية وكان اعتراضه غير مصيب هذه المرة ايضا ، حيث انكر على الهمذاني استعمال « تنكد » بمعنى « تكفر » فافحمه الحاضرون بقوله تعالى « ان الانسان لربه لكنود » . ثم ان الخوارزمي بعد ان اوقع به الهمذاني غير مرة اراد ان يفخر فقال مخاطبا غريمه « انا اكتسبت بفضلي دية فما الذي اكتسبت انت بفضلك » فاجابه البديع .. « انت في حرفة الكدية احذق وبالاستماحة احرى واخلق » واستمر الجدل بين الرجلين سجالا حتى انتقلا الى القصيدة التي مطلعها :

وشبّهنا بنفسج عارضيه
بقايا اللطم بالخد الرقيق

حيث ادعى الخوارزمي بانه يحفظها فاجابه البديع متهكما « اخطات فان البيت على غير هذه الصيغة فالافضل ان يقال .. »

وشبهنا بنفسج عارضيه
بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فاجابه الخوارزمي « والله لاصفعنك ولو بعد حين » فرد الهمذاني « انا اصفعك اليوم وتضربني غدا .. واليوم خمر وغدا امر » وانشد :

رايت شيخا سفيها
يفوق كل سفيه
وقد اصاب شبيها
له وفوق الشبيه

ثم استطرد قائلا :

وانزلني طول النوى دار غربة
اذا شئت لاقيت امرا لا اشاكله
اخامقه حتى يقال سجية . .
ولو كان ذا عقل لكنت اعاقله

ثم ان الكرى عقد اجفان الحاضرين فمالوا الى النوم ، واصبحوا وهم حزبان ، احدهما ينتصر للخوارزمي وآخر للهمذاني ، مما ادى الى تدخل بعض المصلحين لاصلاح ذات البين بين المتخاصمين فكان ان اعتذر الهمذاني من صاحبه وظن الجميع بان هذه المساجلة الكلامية قد انتهت .

الجولة الثانية من المناظرة :

وكما كان النقيب وراء الجولة الاولى من هذه المناظرة فان الشيخ ابا القاسم الوزير كان وراء الجولة الثانية منها حيث شجع الخصمين على عقد مناظرة في داره حضرها اضافة لهما ابو الطيب الصعلوكي والسيد ابو الحسن العالم ، وقد استمال الهمذاني ابا الحسن في قصيدة مدح بها اهل البيت مطلعها :

ياعشرا ضرب الزمان على معرسهم خيامه

وحضر المجلس ايضا القاضي ابو عمر البسطامي وابو

---

(٢١) المصدر السابق ص١٧٤ .
(٢٢) في الادب العباسي لمحمد مهدي البصير ص٨٢ .
(٢٣) معجم الادباء ج٢ ص١٧٦

القاسم بن حبيب والقاضي ابو الهيثم والشيخ ابو نصر المرزبان وجمع من الفقهاء والمتصوفة والمعجبين بادب الرجلين ، واثر اكتمال المجلس طلب من المتناظرين ان ينظما على منوال قول ابي الشيص :

أبقى الزمان به ندوب عضاض
ورمى سواد قرونه ببياض

فقال الخوارزمي :

ياقاضيا ما مثله من قاضي
انا بالذي تقضي علينا راضي

ومنها :

ولقد بليت بشاعر متهتك
لا قد بليت بناب ذئب غاضي

فسأل الهمذاني صاحبه عن معنى قوله « ذئب غاضي » فاجابه « الذئب الغاضي الذي ياكل الفضا » فرد الهمذاني .. « استنوق الذئب حتى صار حملا ياكل الفضا » . ثم طلب منهما ان ينظما على منوال هذه الابيات :

برز الربيع لنا برونق مائه
وانظر لمنظر ارضه وسمائه
والترب بين ممسك ومعنبر
من نوره بل مائه وروائه

فقال الخوارزمي ابياتا اعترض الهمذاني على واحد منها وهو :

والطير مثل المحصنات صوادح
مثل المغني شاديا بغنائه

باعتبار ان المحصنات لا يوصفن بالغناء ، والذي يبدو من خلال المناظرة هو ان الهمذاني قد سفه بعض الابيات لخصمه ورد فيها قوله :

« كالبحر في تزخاره . . . والغيث في امطاره »

لان الغيث هو المطر بعينه ، وقد اعان الهمذاني في تصديه للخوارزمي معظم الحاضرين بعد ان تيقنوا من عجز الاخير وتاخره عن مجابهة نظيره حتى قال الامام ابو الطيب معرضا بالخوارزمي .. « علمنا اي الرجلين افضل واشعر » ، وهنا قام الهمذاني وقبل راس الخوارزمي ويده وقال بلهجة المتهكم « اشهدوا ان الغلبة له » (٢٤) .

وقد عانى الخوارزمي من هذه « الصفعات » ما أوجعه وكان اقساها قول الوزير والحضور يتوسطهم الطعام مخاطبا الهمذاني « ملكت فاسجح »(٢٥) . وهنا لم يجد الخوارزمي بدا من مغادرة المجلس والالم والانكسار يلفانه ، وقال مخاطبا الهمذاني وهو يهم بالمغادرة .. « لا تركنك بين الميمات » فاستوقفه الهمذاني مستفسرا عمايقصده بالميمات فاجابه موضحا .. « بين مهدوم ومهزوم ومفموم ومحجوم ... » ولم يكن الهمذاني باقل من صاحبه سماجة عندما رده قائلا ..

« لاتركنك بين الهيام والسقام البرسام والجذام ... وبين منحوس ومنكوس ومنخوس ... » وهكذا جعل من الخوارزمي طعمة لحروف المعجم . لقد كانت هذه المناظرة نهاية لمجد الخوارزمي الادبي اذ خرج منها مهزوما في حين استطاع الهمذاني تحقيق حلمه وذلك بالانتقام من خصمه الذي أزرى به حين قصده متوسلا المساعدة اثر سلبه وهو في طريقه الى نيسابور ، لقد كانت نهاية الخوارزمي الادبية مفجعة حقا حتى قال احد المؤرخين عن أثرها المهين على الرجل « ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره » ومن الطريف ان نذكر هنا بان الهمذاني كان قد قال اثر موت غريمه بيتين من الشعر فيهما لوعة ووفاء في حين ظن الذين بشروه بموته بان الشماتة ستكون زاده فيما يقول ودونك البيتان :

يقولون انت به شامت
فقلت الثرى بفم الشامت
وعزت علينا معاداته
ولا متدارك للفائت

اخيرا يصح القول بان هذه المناظرة بجولتيها لم تقدم الاضافة الادبية المتوقعة لاعتماد المتناظرين وخاصة الهمذاني الجانب الشخصي في اثارة الخصومة وتوخيهما اسلوب التجريح والتهكم الامر الذي ابعدها عن ان تكون مادة ادبية ثرية ، وفي النماذج الشعرية التي قالها الرجلان خلل جولتي المناظرة دليل ذلك ، فمناظرتهما والحال هذه تكاد تقترب من تجاوزات جرير والفرزدق الشعرية والتي عرفت بالمناقضات حيث ابتعد فيها الشاعران عن المضمون الخلقي في قصائد كثيرة بالرغم من انهما قد أضافا رافدا شعريا غزيرا لديوان الادب العربي لما حفل به شعرهما من طرافة ولغة ادبية قويمة ، واذا كان الخوارزمي والهمذاني قد اقتربا في بعض الاحيان من تجاوزات جرير والفرزدق فانهما لم يتوازيا مع لغتهما المتهتكة حتى نهاية الشوط ، وقد يكون مردود هذه « العفة » بسبب قصر زمن المناظرة الذي لم يمتد سوى جولتين في حين استمرت مناقضات جرير والفرزدق زمنا يعد بالسنين ، وثمة نقطة اخرى حرية بالتامل وهي ان الذين رعوا المناظرة وخاصة النقيب والشيخ ابو القاسم الوزير كانوا يأملون من وراء اثارتها التمتع بمشاحنات الرجلين غير المجدية اكثر من اهتمامهم بالجانب الادبي منها وقد يصح القول ايضا بان الذين رعوا المناظرة ـ وهم من علية القوم ـ كان همهم اشغال الناس بمثل هذه المماحكات الكلامية عن التفكير بامور الدولة السياسيةخصوصا اذا ما علمنا بان القرن الرابع الهجري قد شهد حالة من تفتت الامبراطورية الاسلامية احالتها الى دويلات وامارات متنازعة ، ومهما يكن من امر فان التوقف عند مناظرة الرجلين يحتمل مدلولاتعديدة ربما يكون الجانبان المتقدمان في الموقع المتقدم منها ، ولحبي البحث عن دوافع الحركة الادبية في القرن الرابع الهجري نترك مهمة التوسع في هذين الجانبين والبات صحتهما اضافة لمتعة اكتشاف الجوانب الاخرى التي اثارت هذه المناظرة وعداها من المماحكات الكلامية بين ادباء ذلك العصر والتي تمثل بالتاكيد حالة اجتماعية ليست مطمئنة .

---

(٢٤) معجم الادباء ج٢ ص١٨٢ .

(٢٥) هو قول مأثور لام المؤمنين خاطبت به الامام علي اثر انتصار جيشه بوقعة الجمل .